عطية الهاوية

رواية قصيرة

لازورد ريان

عطية الهاوية

رواية قصيرة

لازورد ريان

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني
kesasandhekayatpub.blogspot.com

العنوان: عطية الهاوية

النوع الأدبي: رواية قصيرة

المؤلف: لازورد ريان (نبذة)

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

تصميم الغلاف والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2022

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2022

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

إنْ أتَتك من الهُوّة هِبة، ألرَوعِك، ستتمنّى الفَناء؟

إنْ أتَاك من الغَوْر نَكَال، ألِوَهَلك، سَترجُو البَقاء؟

إذَا مُنِحت حلمًا من الهاوِية، أستَكون قادرًا على الدّعَاء؟

أم يَا تُرَى، ستَبلعُك أرضُ العُجَاب؟

وتُصبِح روحُك شطرًا من ذا الخَراب؟

«أرضِ الخَرَاب.»

انعكَست الشّمس المائِلة نحوَ الغرُوب على الخصلَات الذّهبيّة للشّاب الذِي لاشى غيظَه رفقَة انعقادِ حاجبيه في امتعاض:

–«بجديّة؟ لا أصدّق أنّه رفَض مشارَكتنا المشروع! إنّ للغُرور حدودًا وَجب أن تُعرَف!»

تنهّد ملقيًا سخطَه على حجرٍ صغيرٍ مستلقٍ في الشّارع، ما كانَ له من حولٍ ليقاوِم ركلَة أيهم فانتهى به الأمرُ يحلّق ويهبِطُ في زقاقٍ جانبيّ، زقَاق مليء بالظّلمة، وبعضِ العيُون المستكنّة، ليردِف ذاك معترفًا:

–«في الوَاقع، أصدّق، ذلِك متوقّع تمامًا من شخصٍ مثله.»

رفَع ذراعَيه وشبَك يديه خلفَ قفَاه ساخطًا، ليستفسِر رفيقُه كنان: «من تَقصِد بالضّبط؟»

–«من تظنّه؟ بالطّبع إياس!»، ردّ أيهم ليحملِق في السّماء الملطّخة بشيء من حمرَة الغروب، ويهمِس بقلّة حيلَة: «أتمنّى لو تبتلِعه دوامَة من الكوَابيس لبقيّة حياتِه.»

شارَكه صاحبه في النّظر إلى الأفُق، لتزدَان مقلتَاه المخضرّة بطيفٍ عسليّ يلوح فيهِما جراء وهَج الشّمس، ذاتُ اللّون الذِي صُبِغت به عينَان تموضَعتا في شطرٍ آخرَ من المدِينة، لذاكَ الفتى السّائِر بمفردِه، لا يسايِر خطواتِه سوى ظلّه المرتاع من اقتِراب اللّيل، مخافَة أن يختفِي مع آخر شعاع للنّهار.

وَجه عابِس، عينان حادّتان، وخصلاتٌ مَثَلُها كمثَل الدّهمَة في أوجِ ازدِهارِها، تنسَدل على ناصِيَته، كما انسابَ ستارُ اللّيل رويدًا يغشى الزّوايَا والطرقات.

•••

أغلَست السّماء، مسلّمةً الأبدَان حريّة التّصرّف: أتَنام، أم من ذَا تتطرّف؟

بينَما في ساعّة متأخّرة من اللّيل، في خطّ واحِد استقامَتِ الشّمس معَ القَمر، وها هِي ذي الأرض وسَطهُما لا تَجِد المفرّ، احمِرار شيئًا فشيئًا تسلّل، على القَمر فكأنّما معتَلّ، قنوّ طغى على المكَان، وفي ثوَان، استقرّ على الوُجود خسوفٌ دمويّ.

يشَاع أنّ هذا يحصلَ إذَا ما اقتَرب من الأرضِ عالم الهاوِية، حيث الأجسَاد من الأروَاح خاليَة، حيث تتعطّش تلك الوحوش لحياة طازَجة، فلا تتلقّفها طالَما ظهورُها ههنا ضعِيف، فطالَما لا يقتَرب بنو البَشر من البَرزخ الفاصِل بينَهما في ألاعيبٍ شيطانيّة سخيفَة، لا تقدِرُ على تحطيمَ السّلاسِل الثّقيلَة.

يقالُ أنّه إذا ما خسَف قرصُ الظلَام، وفي حُمرةٍ ازدَان، لأقصى حدٍّ من التّلاحم يصِلُ العالَمان، فتَجد العَفارِيت والوُحوش فرصَتها للاقترَاب، وسرِقة روحٍ كلّ ذي فضولٍ مرتاب.

أيَمُوت أحدُنا إذا فَقد روحَه؟

عيُون التَمعت في الأركان الحالِكة، نظَرات، همسَات، في البُيوت والطّرقات، لكنّها لا تُسمَع ولا تُبصَر، فما لها من بوّابة عدَا الزّجاج العاكِس، فِي وقت الخسوف الأحمَر، إيّاك النّظر إلى المرآة!

•••

كَان يتقلّب في السّرير كعادَته، يجافِيه النّوم بشكلٍ مضاعَف هذِه المرّة، وفي ضَجَر جلَس معتدلًا، حقًا؛ كَيف تبدو الحيَاة من دونِ الأرَق؟ أيًا كانَ شكلُها، إياس الآن لا يعيشُها.

جالَ بنظره في أنحاء الغرفَة، كلّ شيء مرتّب، منظّم، شتان بينَها وبينَ الفوضَى في رأسه. نهَض متوجّهًا نحوَ المطبَخ، عسَى أن ينعِشه كوبٌ من المَاء البَارد ويقنِع غبَار الرّقادِ أن ينزِل عليه ولو لدقائِق معدُودة، فيرتوِي من قطرَات الميَاه ثمّ يولّي راجعًا إلى وكرِه.

سارَ في الرّواق المدلَهم وئيدًا، يكسُو جسَده رداء الإنهَاك، ألّا ينام المرء لأيّام كما يَجب، ويضطرّ للعمَل والدّراسة نهارًا، ناهِيك عن تحمّل إزعاجِ جَمعٍ من البشَر في المنزِل والثّانويّة والمقهى والشّوارِع، كيفَ لا يصبح مرهقًا؟

ورغمَ ذلِك، كانَ اللّيل أحدَ مفضّلاته القلِيلة، هنَا لا أحدَ يفجّ جدرَان الهدوء، هنا ينعدِم ما يضايقه، هنا ليس مضطرًا للتّعامل مع شيء، فَقط هُو وأفكَارُه المتأجّجة، والانعِكاس الجاحِظ المتبسّم حتى شدقَيه الذِي يحدّق به من مرآة الرّواق أمامَه.

حملَق إياس مشدوهًا إلى ما يقابِله، طرَف بضعَة مرّات، وحرّك فاهُ علّه يتأكّد من حقيقَة تعابِيره، أيضحَك هو أيضًا أم أنّ صورَته فقط من نالَتها الغِبطة؟ لا، لم يَكن ثغرُه متهلّلًا. همّ بالتّحرّك، لكنّه لم يَقدِر، كأن شيئًا خفيًا يحكِم رباطَ أوصَالِه، أحسّ بثقلٍ غرِيب يتربّض على جسدِه، يتمازَج مع ألمٍ ملازِم، في حين ترتَفع حرارَتُه رويدًا، ويرتَعِش حين يحدّق في عينيّ انعِكاسِه المتفتّحتين حتى احمرّ كويكِباهما.

لم يكن أمامَه خيَار إلّا النّظر نحوَه، وحين ركّز، وجَد أنّ هنالك اختلافاتٍ طفيفَة بينهُما، طول الأذن، شكل الوَجه، وأشياء أخرى تؤكد له أنّ الموجودُ في المرآة لَيس هُوَ حتمًا، وقَد تيقّن حين نطقَ ذاك لامسًا السّطح الزّجاجيّ من الدّاخل في همسٍ كالفحِيح:

–«من الاقتِراب ما من ضَير، تعَال، تعَال..»

بدا أنّه لا يستطيع تجاوُز الحدّ الفاصِل بينَهُما، كأنّه محجوزٌ في الطرَف الآخَر، لم يردّ عليه الشاب، بل شرَع يحاوِل إيجادَ حلّ لوضعِه، أو على أقلّ تقدِير؛ أيّ تفسِير، يسارِع في إدرَاك ثنايَا المَوقِف، تزامنًا مع تزايُد وتيرَة الوَجع وجمودِ جُرمِه، أمّا السّماء، فلمن يراهَا قد غدَت الآن أشبَه بالدّم.

لاحَظَ الشّابّ كيانَات مضمحِلّة على أطرافِ اللوحة الزّجاجيّة، كأنّها أيَادٍ وأعين، تطمَع في الخروج، أناتُها البغيضَة تخترِق أذنيه، ومقابِله عن مناجاتِه بالاِقتِراب لا يكفّ!

"أَلِحُمقك لَا ترَى أنّي غيرُ قادِر على الحرَاك أم لِعمَاك؟"، أرادَ أن ينطق لكِن هيهَات.

ووسَط كلّ تلك الأفكارِ والأحداث التّي تعبَث بعقلِه، سَمع صوتًا حادًا كادَ يُذهِب كذلِك سمعَه، كانكِسارٍ شيء ضَخمٍ وعظِيم، أو انفِجار نجمٍ لرَميم، فما إن قلّ الرّنين الذِي أشعَره بالدّوار ففتَح شيئًا من عَينيه، دُهِش بوجهِه يبعُد عنه بضعة سنتيمترات، ينظر إليه وقد سالَ سائِل لزِج أدعَج عليه، الخيالات التي معه أحاطَت بإياس، وهمَس الوَحش بنبرَة عابِثة مهتزّة وقد شدّ على يدَه:

-«لقَد أمسَكتك!»، وسَحبه!

آهٍ، آهْ، لَقَد تحطّم البَرزخ.

•••

-«استَيقِظ، ما لَك لا تنهَض؟»، نادى صوتٌ قائلًا.

-«ربّما هُو ميّت.»، ردّ عليه آخر.

فتَح إياس جَفنَيه بشقّ الأنفُس، لا يزَال جسدُه لا يستجِيب، مستلقٍ في طرِيق ترابيّ يخترِق غابَة، تحدّه الأشجارُ من الجانبَين، كما أُحِيطَ بذلِكما الكائِنين.

توضّحت ملامحهما بعدَ شيء من التّركيز، لكنّه رغم إحساسه بالألفة لهويتهِما لم يقدِر على التّمييز، أولُهما فتاةٌ ذاتُ خصلاتٍ دعجاء قصيرَة، خاطَبها شقيقها ذا البَسمة المُنيرة:

-«إنّه ينظُر إلينا أيْ إل.»

كلاهُما يرتدِيان زيًا عسكريًا، هو بالأحمَر وهي بالأزرَق، لتردّ عليهِ في استهزاءٍ أعصَاب إياس لَه تتمزّق:

-«أرى ذلك يَا آر، لكِنّه لا يستطيعُ شيئًا سوى الإبصَار.»

-«ماذا نفعَل به؟ نقتُله؟»، استفسَر آر واقفًا، كان حتمًا طويلًا، لتقترِح شقيقته:

-«لِم لا نبِيعه لدانتِي أورُوس؟»

-«لكن ألَم تهدّم خرفَان أليس موكِبه آخر مرّة؟»

–«أوَيستَسلِم؟ سيعِيد الكرّة.»

التفَت الشّاب نحو المستلقِي، ليجِده يحملِق فيهِما بتعابِير تشتَعِل غضبًا، قد زَال تشنّج وجهِه، وسيتبَعه بعدَ قلِيل بدنُه، ليعقّب قائلًا:

–«يكادُ يخترِقنا بنظرَاته.»

فكّرت إل لحظة، لترسُم على شفتَيها بسمة، وتنحنِي اتجاهه نازعةً قبّعتها العسكريّة وتضعَها على وجهِه، ما سبّب فيضَان حنَقِه.

–«هذَا أفضَل.»، قالَت. «لنأخُذه الآن.»

كانَ يهدِف إلى الهرَب في الطّريق ما إن يُفكّ وثَاق خدَره، أو يَجد خطّة بديلَة، لكِن وبِشكل غيرِ متوقّع، شعَر بنعاسٍ لا يدرِي مصدَره، أبسبب القبعة؟ لم يطل أن خضَع لَه.

•••

ظلَام دامِس حاصَره من كلّ صَوب ما إن أفَاق، حاوَل رفعَ يدِه فنَجح، واستطاعَ التحّرك، لذَا راحَ يتلمّس المكانَ حولَه بغيَة معرفَة موقِعه، ولم يطلْ أن فَهم أينَ هُو، حين مدّ ذراعَه فتلمّست كفّه قضبانًا تسيّج كلّ زوايَاه الأربَع، إنّه قَفَص.

–«ذلِكما الأرعَنين.»، بِغيظٍ نَبس.

لمْ يَكن هنالك أيّ همس يُسمَع، مهما أصغى، انعَدم النّسيم حتّى، دفَع هذا احتمال كونِه داخِل قافِلة، فظن أنّه بمستودَعٍ مغلقٍ ما، طفِق يتحسّس سمكَ القضبَان، كم سيستغرِقُه ليقطَعه؟ بالأحرى؛ ألدَيه أصلًا ما يمكِن أن يستَعمله؟

وبعدَ ثوانٍ، وإياس غارِق في خواطِره يخطّط لسبِيل الفِرَار، رُفِع ما كَان يمنَع عنه الضّوء والحسّ، صندوقٌ حديديّ أكبَر من القَفص عنه ارتَفع، النّور الشّديدّ الفجائِي جعلَه يغلِق عينيهُ، ولصرَخات جماهِيرٍ تدوّي استَمع.

التَمع العَصفر في قزَحتيه، وهو يبصِر المدَرّجات الممتلِئة لأقصاهَا حولَه، بينَما وضِع فوقَ منصّة تتوسّط حلبَة كبيرَة، ألعابٌ بهلوانيّة ملقاةٌ أسفَله، وزينَة عجيبَة معلقَة أعلَاه، أشخاصٌ غريبُو الأطوارِ يصيحونَ بحماسَة، ووجوهُم على وشكِ التشوّه من عِظَم القهقهة، أبَشر؟ لا يستطِيع الجَزم! إنّه في ما يشبِه سيركَ شياطِين ضَخم!

قرقَعة حذاء بجانِبه يتقدّم لفتت انتِباهه، لينطق صاحِبها بصوتِه المألوف، نبرَة مرِحة وعاليَة عرفَها إياس قبل أن يرَى وجهه:

–«سيّداتِي وسادتِي النّبلاء! وحتّى حفنَة منكُم الحُقراء! مع ألف تحيّة للأغنيَاء، أرحبُ بكم مجددًا في سيركِ الشّقاء!»

علا الصّياح بعد كلام ذاك الأشقَر، الذِي تجمّع في مقلتيه المحيط والأبحُر، يرتدِي زيًا مبهرجًا وقبّعة طويلَة، ذراعاه ممتدّان استعراضًا، وفرحَته ليست قلِيلة! وما كان لإياس سوى أن يخاطِبَه جازمًا، السّؤال غيرَ قاصِدٍ:

–«أيهم؟»

التفت "أيهم" كما شبّهه الأول نحوه ولم يبدُ أنّه عرفَه، بل وضَع يده الملتفّة في قفّاز أبيضَ مردفًا إلى الجمهور:

–«احزِروا ماذَا وجدنَا؟ كائنًا ذا رُوح! غالي الثّمن هو، ووجبَة لا تعوّض لنَا، نحنُ الأجرامُ الخاوِية، إنّي أرى في عيونِكم جميعًا جشعًا وشراهةً باديَة.»

ابتَسم شبيه أيهم في خبثٍ ليردِف محطمًا آمالَ أولئك الجوعى: «لكن، ما المُمتِع في أكلِه؟ ليس وكأنّنا نعرِف اسمه لسرِقة روحِه، ولذا؛ لديّ اقتِراح رائع..»

ضغط على زرّ جعل الجزء من المنصّة التي عليها إياس ينخفض مندمجًا مع الحَلبة، ليُفتَح قفصَان.

–«بدلَ ميتة فارِغة، لنشاهِد صراعًا بغية الحيَاة!»

قفصُ الشّاب، وآخرُ لمخلوقٍ عُجَاب، كلبٌ أكحَل مرعِب، بثلاثِ رؤوس، وأنيابٍ حادّة ومخالِب، حجمُه أكبَر من إياس بضِعفَين، وحمرَة لهَب في العيَنين.

–«هذَا كلبِي الأليف.»، قالَ صاحب الاستعراض، بينما يجلِس على كرسيّ فاخرٍ واضعًا قدمًا فوقَ الأخرى. «أستنجو من ذا اللّطيف؟»، تساءل بنبرَة استفزّت الآخر ليجيب في تحدٍ، إنّ خوفه اختفى لسبب لا يدركه:

–«ليسَت الكلَاب ممّا يعجِبني، فأرجو ألّا يؤلِمك أكلُ لحمِ طفلِك القبِيح بدلًا عنّي.»

–«أكرَه الوقحين.»، أضاف الأشقَر وقد تبدّلت تعابيره للانزِعاج، وقبل أن يفكّ طوقَ المفترس قاطَعه كلام فتَاة من أوّل مدرّج، كانَت تلك إل تنادِيه في اعتِراض:

–«دانتِي أورُوس! ليسَ هذا ما اتّفقنا عليه، لا يهمّني سواء هتكت روح هذا البشرّي أم بِعتَه، يجِب أن آخذ عمولتِي!»

ليتابع قولَها آرْ عاقدًا ذراعَيه في استنكَار: «تعلَم أنّك إن لم تدفَع سيحصُل ما لا يُحمَد عقبَاه، سفينَتك الطّائرة التِي تتباهى بالأجرام المعلّقة عليهَا وبها دائِمًا، لن تراهَا أو تطأها قدَماك مجددًا.»

تنهّد أيهم، أو بالأحرى دانتي أوروس وتمتم منزعجًا بينَ شفتيه، ليقول: «لديّ ما يكفِي من المَال لتعيشَا في قصر طوال حياتِكما، عند انتهاء العَرض سأدفَع فما خطبكُما.»

حرّكت إل كتِفيها ببساطَة قائِلة: «لا مشكِلة لديّ طالَما ستبصق النّقود، كان يَجب أن تحدّثنا من البدء هكذَا.»

–«أسَأُقاتِل بيديّ العارِيتين كذَا؟»، نطقَ إياس منبّهًا ومعيدًا الانتِبَاه إليه، لا يمكِن حتى المقارَنة بينه وبينَ الوحش، ولم يُمنح حتى أبسط سلاح، ذلِك لا يقارِب العَدل في شيء، لكن هنا، لا أحَد يعرِف مصطلَح "الإنصاف".

ليضيفَ وقد أظلَمت تقاسِيمه احتقارًا واشمئزازًا من ملامِحهم المقهقِهة: «حشودُ مخابِيل مقزّزة.»

–«أمسِك!»، صاحَ به آر، ملقيًا إليه غرَضًا، قبض عليه إياس ليجِد أنّه مسدّس، فيبتَسم معلّقًا: «هذا يُناسِبني.»

–«يكون الأمر أكثرَ قِسطًا هكذَا.»، خاطَب آر نفسَه بصوتٍ مسموعٍ، لتعقّب إل:

–«قِسط؟ من أينَ هذِه الكلِمة؟»

–«لستُ متأكدًا، سمعتُ نُويْ يقولُها.»

هزّت رأسها في غيرِ اكتِراث، مزامنةً مع تكسّر قيدِ الوحش، وتحمّس المشاهِدين، مصفّقين وضاحِكين، فيزمجِر الكَلب مهددًا، ويلقِي إياس ما بقي من الخَوف والتّردّد جانبًا، مقنِعًا نفسَه أنّه حلم مرِير، غيرَ ذلِك ما من تَفسِير.

جرى الحيَوانُ نحوَه بجسدِه الثّقيل، لأنيابِه المهولَة ما مِن مثِيل، ليقفِز الفتى متجنبًا له ويطلِق رصاصتَين إحداهما فقأت عينَه، والأخرى أخطأت الهَدف، رصاصَتان لبؤبئ من ستّة، معادلَة غاشِمة بلا أدنى شكّ، السؤال الأهم: متى تعلّم التصويب؟ إنّ ذا لوهم مريب.

دوى عويلُ الوَحش يصمّ الآذان، ولِحسن الحظّ لدى إل وآر لتغطية آذانهما قبّعتان.

وركض إياس على طول حدودِ الحلبَة، والمهتاجُ يلحقُه، يُحدِث في كلّ خطوَة هزّة.

–«ألن تخرَس أيَا كتلَة اللّعاب المتعفّن؟»، نطقَ الفتى متفاديًا مخلَب الغول الذي دعاه مالكه روس، الذِي ولقوّته دفَع بالرّياح وإياس ليصطدم بظهرِه في الجِدار، لكنّه لم يملك وقتًا للسّعال، فما إن رفعَ رأسه حتى وجدَ الكلبَ يقترِب منه، ليقِف بغضّ النّظر عن الألم، ويطلِق مجددًا على مقلَة العملاق، هامسًا بينما تابَع الرّكض:

–«جسدٌ بهذَا الحجم لا بدّ أن يكون جلدُه سميكًا، أعينُك هي نقطَة ضعفِك.»

وقد لاحظ في أوّل مرّة أنّه يقِف دقيقَتين إذا ما تضرّرت تلك الأخيرة، كأنّه يعيدُ إدراكَ الموضِع، أو يرجِع توازُنه، فاستغلّها في الوصُول إلى النّاحيَة الأخرى من الحلبَة، هدف جريِه منذ البِدايَة، الذي صاحَ بسببه دانتي حانقًا:

–«أستكمل ركيضًا حتى تموت؟! افعَل شيئًا ما!»، ويوجّه حديثه لآر في حين يشتَعل غيظًا: «وأنت! لِم من بين كل شيء أعطيتَه سلاحًا مصنوعًا من قطعة طاهرة؟ ألَا ترَى كيفَ يتغلّل سمّ نقائها في جسمِ ابني؟ فتحمّله كلّ إصابَة قنطارًا من الوَجع المضني!»

أدَار آر رأسَه كمن لا علاقَة لَه، ليُعيدَ دانتي نظرَه إلى الحلبَة بحثًا عن إياس الذِي كان واقِفًا بثبَات بجانِب بوابَة بذاتِ صبغَة الجدرَان لا يُلاحَظ منهَا إلّا قُفلُها، قائلًا بنبرَة متعاليَة كعادتِه في تهكّم:

–«لِم لا تَدع كلبَك المسكِين يرتَاح، بدلَ الاستِمرَار في النّواح؟»

امتَعض صاحِب العرضِ من قولِه، ليأمرَ متوعّدًا وقد نفذَ صبرُه: «أي روس، اِفتك به، مزّقه كلّ ممزّق، وعظامَه على الأرضِ فرّق!»

استجَاب المأمورُ لسيّده، وراحَ يهجم على إياس كالمسعُور، يسعى نحوَه والآخر لم يتحرّك من جنبِ السّور، بل قبَض على سلاحه بكلتَا يديهِ ومدّهما، مركزًا: لديه فقط فرصَة؛ لنجاح الخطّة.

ثانِية، ثانِيتان، ثلاثَة، وطلقَة! في منتَصف الجَبهة!

ملأ الكلب الساحَة بزئيرِه، رغم أنّها لم تضرّه، لكنّ إياس كان يُدرِك ذلك، فمن تذمّر دانتي عرف أن ذي الرّصاصات تفقِده الإدرَاك مؤقتًا، فعمِد إلى إصابَة الرأس الذي من جِهته، ليفقِد الوحش توازُنه، ويميلَ يسارًا فيصطدِم بالبَاب إذ لا يقدِر على التوقّف لبطء ردود أفعالِه، ناهيكَ عن أنّه بالفِعل قد حطّم القُفل حين كان الأشقَر مشغولًا بمعاتبَة آر.

وبالفِعل، حصَل ما خطّط له.

كُسِرت البَوّابَة واندفَع روس نحوَ المدَرّجات، وفي هيجانِه راحَ يُهاجِم كلّ من يلمَحه، عمّت الفوضى أكثَر ممّا كانت، وجُعِل على وقعِ الصّرخات من كلّ موضِع يُلطّخ بالأحمَر، بالدّم الحَارّ!

–«السّيرك الثّمين!»، صاحَ دانتي أوروس باضطِراب ينظُر إلى الهَرْجِ الحاصِل، وأردَف مخاطبًا إياس: «أيْ أيّها الأثيم!»

ابتسم ذاك له وبنظرَة مستهزئة سخِر، ولم يكد الآخر ينطِق حتى أبصَر شيئًا يخترَق السّقف نازلًا بسرعَة كبِيرة، وفي جزء من الثّانِية؛ هدأ الوَضع فالكَلب ميّتًا خرّ!

–«هذَا الحضُور..»، نبَس آرْ بعدَ أن كانَ يشاهِد المجزَرة مع أخته، وأردَفت هي تزدَرِد ريقَها:

–«عندِي ذاتُ الشّعور..»

رويدًا انقشَع الضّباب من بقعَة القتِيل مفصول الرأس، فتظهَر أذنانَ طويلتان، جسدٌ صغِير يكسوهُ فِراء ثلاجِيّ ناعِم، وكريستَال عنّابيّ استقرّ في محجريه، بدلَة يختلِط فيها الأكحَل والأصهَب، وإياس من هويّة الزّائر متعجّب:

–«أرنَب؟»

♤♧•••••♧♤

«شذَا الرّوح.»

فِي الحيَاة، يرغَب المرء أحيانًا بالذّهابِ بعيدًا والاختِباء، بالنّوم، بالحصولِ على عالَم آخرَ، يصرُخ فيه بدَل البُكاء.

ما الذِي يجعَلك ترِيد الرّحيل؟ إلى أين؟

●●●●

–«علِمتُ ذلك، جُنود أليس!»، نطقَ آر بروعٍ كمن حلّت عليهِ الكارِثة.

–«دانتِي أوروس، أيّها البئِيس!»، وصاحَت إل تلقِي امتِعاضها على الذِي لم يَضع للأمر حسبانًا كما أخبَر. «ألم تقُل أنّك أخفيتَ السّيرك جيدًا؟»

–«وما أدرانِي إن كانَ خلفَ رأسِها ألفٌ من الأعين؟!»

قاطَع تبرِيرات دانتي انفِجارٌ آخر، فما إن نظرَ إلى السّقف المدمّر، وجَد أرانِب العِقاب تنزِل من منطادِها الذي علَا المكَان واحِدة تلوَ الأخرى، كالسّيل والأنهُر، الجمَاهِير شرعوا يفرّون بجلودِهم، وصغارُ الملِكة يحطّمون ويقطعون كلّ ما يوجَد أمامِهم، الفوضى، الأشلاء والغبار اكتسح المكَان، لتنبّه إل أخاهَا قصدَ الهرب الآن:

–«آر، مالَك كالمُحتار؟ أحضِر مسدّسَك وهلُمّ نغادر قبلَ أن ننهَار!»، ثمّ تحدّث رأس المصيبَة دانتي لآخر مرّة وتهمّ بالهَرب: «لن ننسى أمرَ المال للعِلم، سنأتي يومًا من أجله لسفينتك الأمّ.»

أدَار هو عينيه في محجرَيهما سأمًا، ليقفِز نازلًا من على عرشِه، فيقف مقابلًا لإياس الذي لم يتحرّك من موضِعه، ويحملَق به في انزِعاج مغمغمًا: «أيْ مضيعَة المَال تضيعُ منّي.»

ليتجاوَزه راكضًا بعدَ أن ابتسَم في مرحٍ قائلًا: «حاوِل أن تبقى حيًا يا صاح!»

تجاهَله إياس وصبّ جامَ اهتِمامه على ما حولَه، منظَر قطعانٍ تتنافَس للنّجاة، وأرانب ضئيلة تسلُب منها الحَياة، الموازِين منقلِبة، واضطرابٌ يحتلّ المقاعِد والحَلبة، للحظَة، لم يشعر أنّه الواقِف أمام وحشٍ في الكولوسيوم، بل كأنّه يشاهِد مسرحًا بالاختلال هو مقرون.

فتح فاهُ لينبِس في احتقارٍ تامّ: «لَكم أبغضُ الفوضى.»، وأفكارُه كانت في احتِدام.

أحسّ بشيء خلفه، ليستديرَ فورًا في وضعيّة دفاعيّة، لا شيء، وحين أخفضَ بصره، وجدَ كتلَة الفِراء الأبيض.

–«هذا الكائن الصّغير سيقتلني؟»، تساءل. «إن اخترتُ بينه وبين الكَلب، فالثّاني أرحم.» تابع باستخفاف.

لكنّ الأرنَب تجاوَزه كأنْ لَيس له وجود، فيحكّ ذاك قفاهُ مستفسرًا نفسه: «ما كان ذلِك؟»

–«المعذِرة..»، التفتَ إياس إلى المنادِي، فما كان إلّا آر الذي اختبأ حتى ابتعد الجنديّ. ليُردف: «أيمكِنك إعادَة مسدّسي؟»

كان لا يزال في يده، فيرجعه إلى صاحبه، ويقول في نبرَة هادئة تعارضت مع الضّوضاء السّائدة:

–«عدا المخرَج الرئيسيّ، أهناك آخر؟»

أومأ آر بابتِسامته المعتادة: «لم نثِق بدانتِي أوروس من البدايَة لذَا جهّزت وشقيقَتي مهربًا.»

–«اختصِر الكلَام، وانطق المَرام.»، استعجله إياس.

–«ليس عليكَ أن تكون فظًا هكذا..»، تذمّر الآخَر مخرجًا من جيبِه إسوارةً فضيّة مضيفًا: «يمكنها نقلُك إلى المكانِ الذي تفكّر فيهِ طالمَا في الهاوِية، لكنّها لا تنفَع

في المَناطِق ذاتِ الطاقَة القويّة، أرخَص ما حصلنَا عليه من زاسلير.. يمكِنك أخذه ومع أختِي سأرحل، نحن من أحضرنَاك هنا في المَقام الأوّل.»

بمجرّد أن ختم كلامَه خطف إياس الإسوارة من يده، ليلبَسها ويلوّح له بتعابير جامِدة، ويغمِض عينيه ليختفِي من هناك.

–«سريع..»، عقّب ذاك.

ليسرع إلى إل المستكنّة في أحدِ الزّوايا تنتظِره، فيفاجئها ظهورُه المباغِت وتوجّه مسدّسها نحوَه.

–«أنا آر!»، صرّح رافعًا يديه بعد أن كادت تنسف رأسه، فتنزل سلاحهَا وتقول: «لقد تأخّرت! البس سوارك وهيّا بنا.»

ابتسم في توتّر، ولعينيها لم ينظر: «في الواقِع، أعطيتُه لابنِ البشر.»

–«بجديّة؟»، استفسرت لا تصدّق، ومؤكدًا أومأ، فتزفر بعمق، وتضيف في شكّ: «ألست مؤخرًا بغرابَة تتصرّف؟»

–«أنا؟ لا أظن ذلك..»

نظرت إلى شقيقها هنيهَة، لتمسِك ذراعَه وتنطق: «أيًا كان، لنبتعد قبلَ فوات الأوَان.»

•••

اخضِرار الأشجارِ من جديد، الموقِع الوحيدُ الذي رآه إياس هنا، الغابَة التي التقطَه الأخوَان منها، تلفّت حوله، الكثِير من التّشعبَات المختلِطة، رفعَ رأسه نحوَ السّماء، وكان بالفِعل المسَاء، طريقة تلوّنها فجأة من دون غروبٍ ولا تدرّجات كأنّ الصفحة قُلِبَت ليس إلّا، أثارَت تعجّبه، لكِن سرعان ما خفتَ اهتِمامه، ليسَ أوّل شيء غريبٍ يراهُ هنا.

دسّ يديهِ في جيوبِ سترَته، التي شكَر كونه ارتداهَا حين توجّه للمطبَخ لبرودة الجوّ، وانطلقَ يسير بينَ طرقاتِ الغابَة المبلسَة.

بضعُ دقائق مرّت، وهو يمشِي بلا دلِيل، وللمرّة الخامِسة، يرجِع للمنطَلق، لينزعج ويركُل بحنق شجَرة هناك، فيصدُر صوتٌ منها متذمرًا:

–«هاي! ما أنت فاعِل متكبّرًا؟!»

بحثَ إياس عن مصدرِه، لكن لم يكُ أحدٌ بجوارِه، ولا يبدو أن للشجرة فيًّا، فمن أين صوتٌ كهذَا يصدر قويًا؟

–«ارفَع رأسك أيّهَا الشّاب، وكفّ عن البَحث والإرتياب.»

خاطَبه نفس الحسّ، الذي ولسبب ما، شعَر أنه مستفزّ.

حملَق إياس إلى حيث قِيل، لكنّه لم يجد جسمًا ما، بل عينَين نعسَتين ذواتَا بؤبؤ كالقِطط، وفم ضاحِك حتى شدقَيه ملؤه أسنانٌ حادّة تحتَهما حطّ.

زفَر الشّاب محدثًا نفسه: «منذُ قليل أرنَبٌ أزهَر، والآن القطّ شيشر، أهذه بلادُ العجائب أم ماذَا؟»

–«لا، لا، أنت غيرُ مصيب، ليس هذَا بلد العجبِ العجِيب.»، أجابَه الفم الطّافي. «بينَ الواقِع والأحلَام، وفي أقصى يقظَة المَنام، يفصِل بيننا برزَخ رقِيق، والفوضى هنا كالرّفيق، أكابُوس؟ أوَهم محسُوس؟ لك الإختيار، فمن هنا لَن تقدِر على الفِرَار، ليسَ ذا سوى عالَم فظيعٍ ملؤه الأهوَال، القهقَهة وكلّ منافِق محتَال، هنَا حيث الاختيَال والخُبول، لن تجِدها أبدًا سالِمة العقُول، للوجع والهلَاوس ستغدُو كالحَبِيس، هذَه هي أرضُ الخرَاب التي صنَعتها أليس!»

جملَته الأخيرة حطّمت صبر إياس، لينطق في سخط على وجهه بان: «أليس، أليس، والمزِيد من هراء أليس! ما لَكم تهيمُون بها كالعاشِق الطّليس؟!»

وانعكسَ غضبه على الآخر، الذي اختفَت ضحكته وحلّ مكانها حقد ظاهِر: «أهواهَا؟ أتريد زيَارَة المقبرَة؟ أليس دمّرت بلاد العُجَاب وجعلتهَا هوّة مقفِرة! لكم أبغضهَا!»

سادَ الصّمت بينهمَا، وأظلمَت السّماء أعلاهُما، كما في السّابق، انطفأت كشمعة فحسب، فيعلق عليها القطّ:

–«رغم عيشي الطّويل هنا، لا أزال أكرَه طريقَة قدوم الظلام هذه، كيفَ الوضع عندكم في عالم المرايَا؟ من المفترَض أنّك تعلم، في النّهاية؛ أنت رحّالة.»

–«وما هذا؟»، تساءل البشريّ.

نظرَ شيشر إلى إياس هنيهَة يفحصه ليصحّح: «في الواقع، لا تعدو كونك مجرّد عابِر بالخطأ.»

نفّر تجاهله للسؤال الشّاب، والأكثر من هذَا، نبرتُه الممتهنة، وربط كلمة "خطأ" به، لينطِق مغادرًا وقد استنفذ جميع صبره: «مهمَا يكُن.»

فيستوقفه الأول: «لحظة! أنت ذاهب بجديّة؟ ابقَ قليلًا بعد، أكاد أموت ضجرًا!»

وأضاف يبرّر: «أنا أستطيع الرؤية في الليل، ماذا عنك؟ بالطبع لا، ناهيك عن أنّك لن تجِد المخرَج مهمَا حاولت.»

–«قلقُك غير مرغوبٍ به، مع أنّه ليس قلقًا في الأصل، عمومًا، أمرِي ليس من شأنك.»

ختم إياس بلهجتِه الجافّة، ليغادِر، ولم تمرّ نصف ساعّة حتى عاد إلى نفس الموقِع.

–«ألَم أخبِرك أنّك ضائِع؟»، قال القط، لكنّ الثانِي تجاهلَه وأعاد الكرّة، فرجع مجددًا، ومجددًا، ليخاطبه المتثائب في ملل:

–«لِم لا تعترِف أنك تائه؟ أستستمرّ في عنادك طول اللّيل؟»

تظاهَر الفتى بعدم سماعِه، وحين شرع بالمشي في طريق جديد، اقترح عليه شيشر: «ما رأيك أن أدلّك على السّبيل؟»

–«لِم قد أثِق بك؟»، نطق إياس في شكّ.

–«ببساطة لأنّك لا تملك خيارًا ثانٍ، إلّا إذا كنت تريد العيش هنَا حتى تفقِد روحك، ثمّ؛ الأمرُ لا يتعلّق بالثّقة، اعتبِره تبادل مصالِح.»

–«ماذا تريد؟»

–«ليس بالشيء الشّديد.»، تهلّل ثغر الغولِ وبانت أنيابه في حين التمَعت عينَاه، قائلًا في خبث غلّف سيمَاه: «أريد فقط اسمَك.»

عقدَ المُخاطَب ذراعيه وأجابَ ببساطة: «إياس.»

وظلّ القط صامتًا لحظات، لتخفّ ابتسامته ويستفسر مستغربًا: «متأكّد؟»

–«نعم.»

–«هذا غريب!»، أضاف. «لا أشعر أنّك تكذب، ولكن لستَ بصادِق حتمًا.»

–«هو اسمي، ماذا تريد أكثر من ذلك؟»، قال في شيء من السخرية، لتظلم تعابير الثاني مهدّدًا:

–«لا تعبَث معي، أستطيع قطعَ رأسِك واقتلاع لسانِك القذِر في ثانِية.»

–«ما رأيك أن تظهر وجهَك أولًا ثمّ تتكلم عن الرّؤوس؟»

–«نسيت الأمر تمامًا.»، ردّ ضاحكًا بتفاهَة: «معتادٌ أنا على الانزِواء لدرجة نسيت أن لديّ جسدًا حتى.»

ويفكّر إياس: «أيّ نوع من الحمقى هُو ذَا؟»

تمامًا كالخيال، ظهَرت ملامح أخرى حول الأعين، ورأس وبدَن، جالسًا فوقَ غصن غليظ من الشّجرة، شعرٌ أسخَم نافَس ظلمة الغبش، عليه استقرت أذنا قط، وكسر لون ثيابه السوداء وشاح أحمر انتهى كل طرف منه بجرس.

قفز من مجلِسه قبالَة إياس واقفًا، وببسمَة تشق وجهه رحّب قائلًا: «نُويْ أدعى، تمامًا كالنّوى، كروحِ هاتِه الغابَة، ودليل نفسِك المرتابَة.»

كانَ في جملَته شماتَة لم يلحظهَا الآخر، شماتَة موجّهة لنفسه، هو الذي لا رُوح تسكُنه.

–«لم أستفسِر عن هويّتك..»، عقّب إياس، ولم يكترث نُويْ. «بدَل هذَا، متى ستجيب عن أسئلتي؟»

–«سأفعَل، سأفعَل، لِم أنت مستعجِل؟»، ردّ بنبهة عابِثة، كمن لا ينوي التكلّم قريبًا، ليتوجه نحو غصنٍ كسرَه وحكّه بحركة واحدة مع الجذع فتشتعل نار:

–«كما تعلم، الحيَاة طويلَة، طويلَة جدًا، ومليئَة باللّاشيء، فقط الضّجر، بالنّسبة لي، وليس لك، لا يزال أمامك الكثير.»

افترَش الأرض مثبتًا العصا بشكل عاموديّ عليها، ذاك الذي لم ينطفئ بل زادَ وهجُه وراح يتقلّب من احمرارٍ لزرقَة، ليردف:

–«لم لا تقعد؟»

–«أفكّر بالرّحيل في أسرع وقت، لا رغبَة لديّ في الاستماع لك.»

همهَم نُوي وهزّ كتفَيه: «ليس وكأنّك ستنأى بعيدًا عن ههُنا إن لم أفتح لك الطريق، عنادك لن يأخذك لأيّ مكان.»

لم ينبِس ببنت شفَة إياس، ليجلِس بعد ثوان، ويستغلّ الوقت في حديث نافع عسى ألّا يباشِر القطّ بالهراء:

–«ما هو الرّحالة؟ والعابِر؟»

–«رويدًا أيْ حائِر.»، ها هو يستفزّه مرّة أخرى، بينما يلعَب بالنّار الموقَدة، ويتابع أخيرًا: «أنت لست رحّالة، ذاك شخصٌ يبرم مع انعكاسِه عقدًا، سواء كانت خدعة أو بإرادته، وهي حتمًا حيلة من قرينه، ينزِل إلى ذا العالَم، إلى هاوِية ليس فيها إلّا المختلّ المحطّم، فإن لم يستطع العودة إلى مكانه الأصلي خلالَ أربع وعشرين ساعّة، تذوب روحُه ويغدو جزءًا من هنا، أمّا جسده فيسلبه نصفه الثّاني، والحقيقيّ يحجز في ذا البَلد الفانِي.»

اقتلع كومَة من العشب، وقرّبها من اللّهب، حتى احترقت.

وأردف: «أما العابِر، ليس سوى ضحيّة للخسوف الأحمر، من سُحب غصبًا من قبل جنيّ، لالتحام العالمين، لا يحصُل هذا كثيرًا، لندرة قنوّ القمَر أوّلًا، ولمنع البرزَخ

عفاريتنا من الولوجِ لعالمكم إلّا إذا اقترب إنسيّ بنفسه ثانيًا، لكن البَرزخ بينَنا لثوانٍ انكسَر، وها أنذا تحيطني رائحة البَشر.»

ارتَفع اللّهيب فجأة، وكاد يحرق إياس لو لم يتراجَع للخلف بسرعَة، ثمّ عادَ مثلَما كان، الضوء الوحيد وسط الظّلام، ينير بسَناه مرأى شابّ، وعفريت.

–«إذًا، هل سأموت إن بقيت هنا يومًا كاملًا؟»

–«حسنًا، حسنًا، من يعلَم؟»

–«لستُ أمزح.»، قال إياس بجديّة.

–«لا داعِي لوضع تعبير حازم كهذا، أنت مضجر.»

–«لا أذكُر أنّي أعمَل مهرجًا.»، عند ذكر آخر كلمة، تذكّر دانتي والمشاكل التي سبّبها له في السّيرك، ليتوَعّد بلكم أيهم شبيهه عند العودَة لواقِعه.

–«هل أخبرك أحدٌ أنّك تملِك وجهًا مستديرًا وتعابِير بريئَة؟ إنه عكس شخصك تمامًا.» علّق نوي ساخرًا.

–«لديكَ مشكِلة في عينَيك، هل أقتلِعهما من أجلِك؟»، ردّ إياس ليضحَك الأوّل فيكاد غضبه أن يستشيط، عدا أنّ ذاك سكت بعد قليل.

–«في الحقيقَة، الأمر ليس وكأنّك ستموتُ حقًا، الأمرُ يتعلّق بحظّك.»، استرسَل نُويْ: «أنتَ فقط ستضِيع، تتشوّش ذكرَياتك وعقلك كلّما بقيتَ هنا أكثَر، ولن يطول قبل أن تغدُو كتلَة من الخبول، سيبتلِعك التّيه، من رأسك إلى أخمص قدمَيك، وفي النّهاية، ستنسى من أنتَ، وتصبِح جزءًا من مخلّفات الهاوِية.»

حملَق مباشرَة في عينيّ إياس: «أنت الآن تحاول تذكّر بعض التّفاصيل من حياتك قد نسيتَها فجأة، أليس كذلك؟»

كان محقًا، إذا ما حاول التقاطَ حبل في ذاكرتِه لم يستطع إيجاده، شعر أنّه يقف أمامَ كومَة من الخيوط المتشابِكة، المهترئة.

–«أتساءل حقًا كيف لا تزال على قد الحياة، رائحتك تشمّ من على بعد أمتار.»، أردف المتحدث.

–«رائحة ماذا بالضّبط؟»

شقّت ملامح نوي ابتسامة عريضة: «فغوة روحِك اللّذيذة.»

لينطق إياس باشمئزاز: «هذا مقرف.»

–«لم ترَ شيئًا بعد.»، قال القط مازحًا. «بالمناسبة، هل رأيت هنا شخصًا مألوفًا؟»

أومأ إياس بعد قليل من الصّمت، ليتحمس الآخر هاتفًا: «رائع! ماذا عنّي؟ هل من قبلُ رأيتنِي؟»

–«لا.. لا أظنّ ذلك.»، كذَب، هو يعرِف وجهًا مثلَه.

–«يا قاتِل المرح.»، برطم في ترح.

–«وما الذي يعنيه هذَا على كلّ حال؟»

–«الجوّ حارٌ بارِد.»، تذمّر نوي في هذيَان، ليفرقِع المقابل أصابِعه كي يستفيق:

–«أنا أكلّمك أيّها البليد، لِم تركِيزك هكذا بعِيد؟»

–«نعم، نعم، أسمعك.. فقط كنتُ أتساءل كيف الجوّ عندكم؟»

تنهّد إياس نظرًا لكون هذا لن يجيبه حتى يسمَع ردًا بدورِه، فيشرحَ باختصَار: «ينقسم العام إلى أربعة فصول، الصيف؛ حارّ، الشّتاء؛ بارد، الرّبيع والخرِيف معتدِلان، فأجب عن سؤالي الآن.»

همهم صاحب الوشاح في إعجاب، وعيناه تبرُقان: «أيّ جمال هذا الذِي تعيشون فِيه؟ لا بدّ أنّكم سعداء!»، طأطأ رأسه محملقًا في الأرض: «يا ليتنِي كنتُ مكانَك.»

لم يكُن حزينًا، ولم يكن مدركًا لمعنى كلمة "سعداء" حقًا، لا أحدَ يملِك مشاعِر هنا.

قبض على كومة من العشب ثانِيةً، وأشعلَها: «أنت كعابِر، لا يمكنك رؤية أشكالِنا التي عليها نبدُو، فقط الرّحالة من يستطيعُون ذلك، جميع الكائنات هنا تبصرها بأشكال تعرفها، حتى لو رأيتها مرّة واحدة في حياتِك، فهنا يُلعَب ببواطِن عقلِك.

أنا مثلًا مليء بالندوب في الحقيقة، أأظهر لك سليمًا؟»

–«أجل.»

–«أرى ذلك.»

فجأة، صارتِ السّماء صبحًا، عاد النّور، لم يتعجب إياس لكنّه عقّب: «ليل بهذا القِصَر؟»

–«الوقتُ هنا غير منتظم، أحيانًا يمرّ في ثانيَة وأخرى كالدّهر.»

رفع نوي بصرَه نحوَ الأفق، ناظرًا في شوق: «أرغب بالطيران، أرغب بالسقوط، عند النّظر إلى السّماء؛ أتّمنى لو أني سَحابة.»

ثمّ التفت إلى إياس: «ميريدِيث يكرّر هذه الجملَة كثيرًا، أتعرِف معناها؟»

–«لا.»، قال ووقف: «سأذهب، أين الطريق؟»

–«بالفِعل؟ لم لا تبقى أكثر قليلًا؟»، لاشى عابسًا، المزيد من الملل ينتظره.

–«لا مزاج لديّ لأصبِح خرابًا.»

–«كما تشاء إذًا.»، استسلم نُويْ، ورفَع يده قليلًا، ليغرز أظافره الحادّة في ذراعِه اليمنى، تحت نظرات الثاني المستغرِبة، وينثر دمَه على الذي مسحَ وجهَه من القطَرات منزعجًا:

–«ما أنت بفاعل؟»

–«أخفي رائحتك، كنت تسير وأنت أشبه بطبَق من اللّحم الشهيّ يفوح في الأرجاء، لن تصمد حيًا ولو لحظَة، لا تسلَم الجرّة كلّ مرّة.»

زفَر إياس مهدئًا نفسه، وقال: «لم تساعدُني؟»

–«لأنّي أشعر بالسّأم، ثمّ إنّ ميرِيديث بأن لا أؤذي أمثالَك أخبرني.»

–«ومن ذاك؟»

–«من يعلم؟»، نطق بنبرَة غامضة. «شخصٌ يملِك كلِمات لا نعرِفها.»

ليشيرَ إلى سبيل بين شجرَتين، لم يكن موجودًا أمس: «اذهَب من هنَا، هو مخرَج، لكن إلى أين ستصِل؟ لستُ بمدرِك.»

–«فهمت.»

نبس إياس، وهمّ بالتحرّك، وحين تجاوزه بخطواتٍ سأله: «أيّها الفتى، أتحبّ السّماء؟»

توقّف هنيهَة، نظر نحوَ المقصودة بتقاسيمه العابِسة، وباقتِضاب أجاب: «لا.»

وبعدَ بضعَة أمتارٍ قطَعها، استدارَ إلى الخلف، تمايلَت خصلاته جرّاء نسائِم الريّاح، وفُتِح جفنَاه حين رأى المكان هناك، بعيدًا حيث كان، تتراقَص ألسِنة اللّهب كشعيراتِه، يَحترِق.

♤♧•••••♧♤

«أليس تُحبّك، أليس تكرَهُك.»

الجَوهَرة فِي جوفِك تغدُو كالوَردِ الذّابِل، تذوبُ رويدًا، تتسللّ سمّيتها، وتقتُلك من الدّاخل.

المَوتُ يأتِي أولًا من أنفُسِنا.

●●●●

"سِر بشكل مستقِيم، ومن صانع القبّعات احذر."

كانت هذه أحَد كلمات نُوي الكثِيرة التي بالكادِ تذكّرها الآخر، يا له من ثرثَار.

ربعُ ساعَة من مسِير لا يُدرَى إلى أين يفضي، إذ شيئًا فشيئًا قلّت الأشجارُ حولَ إياس، واستُبدلت بحشائش وشجيراتٍ مقلّمة بشكلٍ دقِيق شبيه بالجُدران، وإذ به قبلَ أن يلاحِظ يمشي في متاهَة غريبَة، ليقِف متنهدًا فالنّهايَة لا تبدو قريبَة:

–«هذَا ما أحصِده عند الاستِماع لشخصٍ يخبرنِي بالاتجاهِ لأنّه ضجِر فقط، غيرُ موثوقٍ بالمطلَق.»

ثمّ يردفَ مصحّحًا: «ليس شخصًا حتّى.»، وتابَع التقدّم.

●●●

–«أرى أنّ لدينَا ضيفًا جديدًا.»، نطقَت بصوتِها الهادئِ بينَما ترتَشف من كوبِ شايٍ أنِيق، خصلَات سماويّة على ظهرِها انسدلَت، وثوبٌ فاخِر بلونِ العلّيق.

–«من هُو؟»، تساءل الذِي ارتَمى بملل على المائدَة المزيّنة، مليئة بالكَعك والحلوى هِي.

–«أتمنّى ألّا يكون مزعجًا مثلَك.»، ردّت عليهِ التِي مقعدُها يقابِله، الصّحون الفارِغة اصطفّت أمامَها وكؤوس الشّاي كذلِك.

فتختِم تساؤلاتِهما الوُسطى التِي ابتسمت، وعينَا الرّيم بسوداوِيتِهما التمعَت:

–«ها قَد وَصل.»

مزامنةً مع قولِها، فتح بابٌ ذهبيّ مزخرَف بينَ الحشائش والأزهَار، ليظهَر إياس الواقِف في حذرٍ تتبَعه الأبصَار، كان أولُ من لاحظ هو دانتي الذي رفَع رأسه عنِ المنضَدة بمجرّد رؤيته، ليهتِف:

–«حيّ أنت؟»

–«أنَا ميّت، أنت تهلوِس.»، عقّب الشابّ في برود ليجولِ ببصرِه في الجوار، المرأة في الوَسط تشربُ الشّاي بصمتٍ من دونِ أن تتطلّع إليه، أمّا الجالِسة في الجانِب الأيسَر، بشعرِها الأسودِ العشوائيّ التسرِيح، وأذنَا أرنَب بذات اللون عليه تستريح، كانَت تمسك بيدِها ملعقة تلتهم بها ما على الأطباق.

جالسون هم على طاوِلة وسطَ حديقَة غنّاء، تحيطُها الورودُ من كلّ جانِب، خضرَة الأرض وزرقَة السّماء، كأنّه منفصِل عن ذي الهاوِية، للهدوء جالِب.

–«أبالفِعل أضعتَ روحَك؟»، تساءل دانتي مستغربًا، لتأمّله مقاطعًا. «لستُ أحسّ بها في جسَدك.»

فكّر إياس أن القطّ لم يكذِب عليه، لتنطِق تلك المرأة؛ أكويليَا، ببسمةٍ لطيفَة محدّقة في عينَيه: «هذه رائحَة دمِ ذاك القطّ، أقتَلته يا ترى؟»

شعَر بخطَر تبثّه، ليست كهمجيّة دانتِي أورُوس، ولا عبث نُويْ، كانت هالَتها هادئة، ومرعِبة.

ازدَرد ريقَه ليقول محترسًا من أيّ حركَة قد تصدُر منها: «لا شيء يدفِعني لإخبارِك.»

همهَمت واضِعة الكوبَ على الطّبق: «معك حقّ، حسنٌ، ليس وكأنّي أهتمّ حقًا لحياتِه، عكسَ ميريدِيث؛ أنا أكرَه القِطط.»

قالت ذاكَ الإسم عمدًا، مراقِبةً تفاعُله، وبالفعل أدركَت أنّه سمِعه من قبل، ممّا يعني أنّ نُويْ لسَانه لم يمسِك.

–«بما أنّك هنا، ما رأيك بشربِ الشّاي معنَا؟»

نوى إياس الرّفض، لكنّه لمحَ بطرفِ عينِيه عيونًا من بين الشّجيرَات تراقِب، بحملَقاتِها جسَده تكادُ تقطَع وتفضّ، ناهِيك عن تطاوُل سيقانِ الأزهار والأوراق، حتى اختفى البابُ والرّواق.

تقدَم بثبَات، ليجلِس على مقعَد يوازِي أكويليَا، ورأى حينها ذراعَ دانتي اليمنى مقطوعَة، انسابُ منهَا دمٌ بغزارَة، مشكّلًا أسفلها بركَة، ورغمَ أنّه قلّ الآن، لا أحَد بالأمرِ اكترث.

–«أفعَلت تلك الأرانِب هذا؟»، سأل، فتجيبَه الأرنبة السّوداء:

–«ليست مجرّد كائناتٍ صغيرَة، إنّها أرانِب أليس، بالنّسبة لنا أبشَع الكوابِيس.»

فيهمِس محاورًا نفسَه: «هي لم تهاجِمني..»

عدا أن أكويليا سمِعته، لتقولَ: «لأنّك تملِك روحًا، لا تفتِك تلك المخلوقَات سوى بأهلِ الهاوِيَة، لكِن انتبِه؛ فغوة روحِك صارت تكاد لا تُشَمّ أو تُذكَر.»

–«ذلِك أُبصِر..»

كوبًا جدِيدًا من الشّاي سَكبَت، وثلاثَ ملاعِق من السّكر وضَعت، طفِقت إيّاها تخلِط، والتوَتّر يتصاعَد ويتخبّط، ليتوقّف صوتُ اصطدامِ الملعَقة، الأعصَاب كانَ يشدّ، ولنطقِها ما من بدّ:

–«أحقًا الرّجوع إلى البيتِ ترِيد؟ أذَا غايَتك وهدَفك الطّريد؟»

حقيقةً، لم يفكّر هو في الأمرِ بعمقٍ سابقًا، كانَ ذلك أمرًا مسَلّمًا، لكِن ها هي ذي أفكارُه به تعصِف: أيرغَب بالعودَة؟ عقلَه تنسِف.

دقيقَة، فاثنتان، وصمتٌ يغزو الأركَان، لتفجّ خيطَ خواطِره فالوقتُ للجوَاب قد حان:

–«ألا تدرِي؟»

نظَر إلى وجهِها، بسمَة وقورَة تسِمُها، وكلِمات في الصّميم تخرُج من فِيهَا: «أيُعقل أنّك تظنّ ذي الهوّة بك أرحَم؟»

أسنَدت رأسها على يدِها، في حين مرفَقها على الطاوِلة، لتردف بحسّها الرّنان: «مثِير للضّحك.»

لعِبت لهجَتها المتعالِية بأعصابِه، فيردّ وقد أعتَمت تقاسيمُه: «اهتمّي بحديقَتكِ، وفي أمورِي لا تحشرِي أنفِكِ.»

–«أنفِي مشغولٌ بالتّمتع بأريجِ الشاي والزّهر، لأفكّر بكَ لستَ بحلاوَة السّكر.»

اتكأت على ظهرِ الكرسيّ مضيفة: «أنا فحسب ضحِكت على النّكتَة أمَامي، أتُرى ذا شأوي ومرامِي؟ لا أدرِي، هنا: لا أحدَ يدرِي.»

أطلقَت الأرنبة رابي على إثر كلام الأخرى قهقَهة كانت تكتِمها، وتستفسِر من الصامِت بين المخابِيل الأولى:

–«أتحبّ الألَم؟»

–«وما شأن هذَا؟»، تكلّم.

–«أبجديّة تسأل؟»، قالت رابي وعن الكَعك شوكتُها لا تَغفل. «إن لم تكُن تحبّ الوجَع والعذَاب، لن تقدِر على احتمال التنَفّس، فما بالُك بالقدوم والإيّاب؟»

تحوّلت بشاشَتها إلى وجومٍ مريع، لتتفوّه بكلماتِ وعيدٍ شنيع: «هذَا ليسَ ملعبًا لكَ وصديقك الحَميم، إنْ هو لأمثَالِكم إلّا كقعرِ الجِحيم.»

وبرزَانة نبّهتها أكويليَا مغيّرة الجوّ: «رابِي، لقد حطّمتِ الصّحن مرّة أخرى فاحذرِي.»

انتَبهت تلك إلى الشّوكَة المغروزَة في خشَب المنضدَة، تشقّ الطَبق نصفَين، وأجابت مازِحة: «في الواقِع كنتُ أريد إيلاجَها لذَا الفتى في منتَصف الجَبِين.»

رائحة دماء دانتي لا تزال تلوح في الأجواء، وإياس يرغَب بمغادَرة موكِب الثّرثَرة الخَبْلَاء، فتعودَ إليه ذات خصلات الأفُق، وتحدّثه فتنطِق:

–«لست أوّل من يرغَب بالبَقاء، عدِيدون ظنّوا أوّل الأمرِ أنّ ذا منجى العَناء، أن تعِيش طويلًا، كأجرَام نجمٍ جَوفاء، أليس ذلِك رائعًا؟ أنحتَاج حقًا روحًا وأسماء؟

في الهاوِية، الحيَاة طويلة، طويلَة ومرعِبة، كلّ نَفس أشبَه بحديدٍ منصَهرٍ يَحرِق رئتَيك، كلّ خطوَة كملايِين المسامِير تختَرق قَدميك، لا عدَالة ولا دمُوع، والمضّ يتخلّل رأسك كالفُروع، دائِمًا، لا اعتِيَاد، لا حلمَ ولا مُرَاد.

هذِه الميتَة طويلَة، طوِيلة، كالرّقص على الجمرِ في مهرَجان، مرارًا وتكرارًا، وتكرارًا، وتكرارًا، فبَدلَ الصّراخ تضحَك، وبدَل البكاء تدمَى.»

لحظَات حلّت من الإبلَاس، ودانتي يحرّك يدهُ لتناوُل شيء فيتذكّر أنّها منزوعَة، أمّا رابي فقد صرّحت: «لِم تخبِرينه أيْ أكويليا؟ البَشر للتحذِير لا يستَمعون، ثمّ إن سماعَ صراخِهم بعدَ أن يُحجزوا أمرٌ بالمتعَة مقرون، بشكلٍ مثِير للشّفقة حدّ أقصى درجَات الجُنون.»

ختَمت ضاحِكة بصخَب، وإذ بإياس يتحمحَم قائلًا:

–«هل انتَهيتم من اللّغط؟»

–«من النّزهة؟ في الواقِع لا.»، أجابت أكويليا. «رابِي لن تستطيع مفارَقة أكوابِ الشّاي بفضلِ خسارَتها في لعبَة أليس حتى الدّورة القادِمة.»

–«ولن تجيء إلّا بعدَ ألفِ سنَة!»، تذمّرت رابي.

ونطقَ إياس المستَاء: «أنتم تتلفّظون فقط بالهراء.»

فيعقّب دانتي: «إذا كنتَ من هذا فحسبُ تنزعِج فمِن أينَ بنيّة البقَاء؟»، وقهقه، ثلّة مجانِين كلامُهم لا يُفقَه.

طرَقت أكوِيليَا على المنضَدة، ليخرج من بين الشجيرات خروفٌ يرتدِي زيّ خادِم وعلى قدميه يتقدّم، فيضع كوبًا فضيًا منقوشًا بدقّة جنبَ إياس المتبرّم.

–«ألن تشارِكنا؟»، اقترحَت.

–«لا، شكرًا.»، رفض.

–«لِم الغلظَة؟ روحُك لا تزال معَك.»

لفت قولُها انتباه تي الذي نهض هاتفًا، والكرسيّ دافعًا: «حقًا؟ لا يزالُ بإمكانِي بيعُه إذًا!»

وتعلّق رابي: «ليس فقط يدِك، أتمنى أن يقتَلع الجنودُ في المرّة التالِيَة رأسَك.»

–«اخرسي..»، نبس وعادَ للجلوس في امتعاضٍ عَبُوس.

وأخيرًا بعد أن صمتَ الاثنان، محدّثًا أكويليَا صرّح إياس: «لا فرقَ لديّ في وجودِها من عدَمها.»

–«فعلًا؟ دعنِي أطرح عليك سؤالًا إذًا.»، انشرَحت أسارِيرهَا بوداعَة تعاكَست مع قولِها: «هل قتَلتَ شخصًا من قبل؟»

هالَة ثقيلَة حولَهما تجمّعت، وماضيةً أردفت: «هَل قُتِلت من قبل؟»

–«ما الذي تهذِين به؟»

–«هل مُزّقت أطرافُك إربًا إربًا؟ هل سَمعت صوت تهشّم العِظام وتمزّق اللّحم؟ أشمَمت رائحَة مئاتِ الجُثث المتعفّنة من قبل؟

هل رأيتَ معارِفك ورفاقَك يستغِيثون بكَ بينَما تُسلَخ جلودُهم وأنت عاجِز عن فعلِ شيء؟ أأبصَرتَ دلوًا مليئًا بأشلاء أحبّائك قط؟»

سادَ إبلاس رهيبٌ، لم تصدِر حركةً حتى من دانتي ورابي.

–«هل سبَق وجعتَ لدرجَة أكل لحمِك المرّ؟ هل طبَخت ذات يومٍ إنسانًا في قدر؟ أحاوَلت يومًا إقناعَ نفسك بأنَ الجمِيع عدَاك ليسوا بآدميّين، لتذبحهم كالحيوانَات؟ هل طارَدك الخوفُ والخِزي وبكيت حدّ القيء؟

هل هِمت لسنوَات في صَحراء القحط؟ هل احترَقت مئات المرّات قطّ؟ هل صرَخت حتى تمَزّقت حبالك الصّوتيّة؟ أم أنّ ثغرَك اخترِق وسُحِب بنصلٍ من حدِيد كي تضحَك؟»

صمتَت، وقطعةً من الكَعك قطعَت، لتكشِف عن سائِل انسابَ من داخِلها بلونه الأحمر، وبما شابَه الاستهزاء تستفسِر: «ألَا تعرِف شيئًا عن العذَاب؟»

ظلّ ساكتًا، هو هكذا دائمًا، لتكمِل: «بما أنّك شيئًا من هذا لا تدرك فلستَ مؤهلًا، اهرُب بروحِك من هنا ركيضًا ولا تكُ طفلًا.»

–«يسرّني هذا، أيمكِنك فتحُ البَاب بدَل إغداقِي بالسّخافات؟»

–«ما من داعٍ للعصبيّة، عليكِ تعلّم التحلّي بالصّبر.»

–«هو شأنِي أليس كذلِك؟»

همهَمت أكويليَا ثمّ قالت: «أنت تعامِل روحَك بشكلٍ فظِيع.»

وعلى أثرِ آخر كلماتِها وقف ضاربًا المنضدة بكفّيه: «افتحِي البَاب.»

–«مخِيف، مخِيف، أم أنّه سخِيف؟»، نطقت لتحرّك سبّابتها في الهواء، وخلفه يظهَر المخرج. «سيفتَح في منتَصف المدينَة، دعنِي أخبرك نصيحة أخيرة: لا تثِق بأحد هنا، ولا تنسَ إخفاء مُهجَتك الدّفينة.»

همّ بالمغادَرة، فتنبّهه لآخر مرّة: «حافِظ على روحك أيّهَا الفتى، لا تجعَلها أكثَر هشاشَة: الحدّ الذي يعلو أن تسوّل لك نفسك الإقامة هنَا، اعتنِ بها طالَما هي بحوزَتك، بدل ارتِداء زيّ لا يَنفَعك، فالحيَاة قصيرَة، وإلّا لن تجِد من يرافِقك في النّهايَة عدَا النّدم.»

–«ليست هذِهِ الكلِمة في قامُوسي.»، قرّر أنّ ذا آخر ما يقول.

–«إذًا، يجدُر بك إضافَتها، لأنّ التّلهف سيلحَقك لا محالَة، كمَثَل الآخرِين، سوَاء أكان الآن، فتنقِذ حالَك إن تتحسّر، أو بعدئِذٍ عندَ النّهاية حيثُ لا تجدِي: فتخسَر.»

لم يلتَفت إليها وسرعَان ما نأى عنها.

–«لِمَ لَم تُخبِريه عن طريقَة الفِرار؟»، كلّمتها رابي. «أعني؛ اعتدتَ على إرشَاد أولئك الدّخلاء تنفيذًا لطلَب ميريدِيث.»

–«ولِم قد أفعَل؟ الأمرُ يتعلّق بإرادَته، إن رغِب بذلك أم لَا، إنّ وُجدانَه بعدَ كلّ شيء يُطارِده.»

ارتَشفت من مشروبها وأكمَلت: «صراحَة، لا تهمّني نجاتُه من هلاكِه، في النّهايَة؛ أنا كذلِك أطمَع في رُوحه.»

تهلّلت أسارِير رابي، ونظَر دانتي إلى كأس إياس الذِي لم تنقص منه قطرة: «غادَر من دون شربِ شيء.»

أجابَته أكويليَا ضاحِكة: «ذلِك له أحسَن، إن عرِف أنّه صُنِع بالدّم أتتوقّعه سيمتنّ؟»

وتلت ذلِك بشعيراتِها عابِثَة: «لِم يا ترَى بهذَا العنَاد هم البَشر؟ رغمَ أنّ حيواتِهم شدِيدة القِصر، ومعَ امتلاكِهم قلوبًا ولعُقولهم بَصر، لِم يُصرّون على التّيه حتى خلاصِ العُمر؟ أتساءل إن كَان ميريدِيث هكذَا أيضًا؟»

ختمت هامِسة، وعمّ السّكون، ليعودَ بعد دقائق دانتي أوروس لإقناعِها بخياطَة يدِه المبتورَة، ورابي تخبِرها ألّا تفعَل.

•••

أرضُ المدينَة المزعومَة تمامًا كرقعَة الشطرَنج، بلاط بالأبيض الأسوَد، وبيوتٌ هجانَة مشيّدة بنفسِ الشّكل تمتدّ على مرأى النّاظر، كلّ منها مغلَق وهادئ كأنّه شاغِر، المكانُ خالٍ تمامًا، فقط إياس يسير بلا اهتِداء، وللمناظِر المتماثِلة لا يجِد ابتداء.

–«لِم كلّ شيء في هذَا العالَم متشابه؟ أمع ذاتِ المصمّم الجمِيع تعامَل؟»، سأل، ثمّ لمحَ بناءً ضخمًا مختلِف الشّكل، كُتِب على مقدّمتِه "المحكَمة".

قرّر الدّخول علّه يجِد شيئًا، وبالفِعل، كانَت المحكَمة هادئة عكس المتوقّع، وممتلِئة، تُشبِه المحاكِم العادِيّة عدَا أن كرسيّ القاضِي استُبدِل بكرسيّ فخم بنفسجيّ، اللونُ الوحِيد الذِي كسرَ قداسَة الأدعج والأمره، أغلَق البَاب الكبِير رويدًا، ليتقدّم وعن مقعَد يبحث.

–«أنت هناك، إياس!»

نادَاه صوتٌ بنَبرة خافِتة، التفتَ إليه فكان نُويْ يلوّح له بوجود مجلِسٍ خالٍ بجانِبه، تجاهَله الشاب ونظر حولَه بحثًا عن آخر لكنّه لم يجِد للأسف، فيذهبَ للجلوسِ حيثُ أشارَ الأوّل.

–«ألم تحترِق أمس؟»، خاطبه إياس.

–«الالتِهاب ليس أمرًا جديدًا، تلك الغابَة يحتَرق جزء منها كلّ حين من دونِ سبب.» شعر المخاطَب أن محاوَلة الفهم بلا فائدة، ليغيّر الموضوع: «مهما يكن، محاكَمة من هذِه؟»

رفَع ذاك يدَيه: «من يدري؟»

حقًا، الحدِيث معه كعدَمه.

ثوانٍ ليدقّ جرَسُ السّاعة المعلّقة أعلى المقدّمة، رنِين قويّ جعله يغلِق أذنيه، وحِين توقّف، وقَف الجَمع لحظَة دخولِ فتاةٍ مع أرنبَين، ذات شعرٍ أسخم طويلٍ وحمرَة في العينَين، بشرَتها الشّاحبة كزيّها الأكحل البئِيس، ليقعُد القائِمُون بحركَة من صَولجانها النّفيس.

–«أتِلك هي أليس؟»

استفسَر إياس بعد أن جلست على كرسيّ القاضِي، فيجيبه نوي نفيًا: «إنّها مجرّد دميَة، الملكَة لا تظهَر أبدًا.»

–«صمتًا.»، نطق أحدُ الأرنبين.

–«المُحاكَمة ستبدأ.»، أضاف شبِيهه.

–«فليتقدّم المجرِم.»، أمَرت الدّمية. «إياس.»

دُهش المقصود من ذِكر اسمه، أيّ جريمة هذِه التي تتكلّم عنها؟ ليهمس نُوي: «هل فعلتَ شيئًا؟»

لم يستَطع الإجابة إذ سرعَان ما أمسَك به الأرنبان، إلى منصّة الاِتّهام إيّاه يجرّان، ثبّتاه كي لا يقاوِم، فتتابِع قائلَة البهتَان:

–«حُكِم عليك بالإعدام.»

–«ما اللّغو الذي به تنطقين؟ لِماذا إيّاي قد تعدِمين؟»، صاحَ ضدّ ذا الحكم الغاشِم المطلق، لكن؛ أيتوَاجد هنَا أيّ منطق؟

–«هذا لأنّ..»، طأطَأت رأسهَا، وانطلقت عبَرات عاكست جمودَ وجهِها، سرعانَ ما تحوَلت لدَم منهما يسِيل، ليسَ مقداره بالنّزر القلِيل: «لأنّ أليس تشعُر بالوحدَة.»

ظلّ مشدوهًا، أيّ سبب غبيّ هو هذا؟ لكنّ ما شدّه أكثَر هو صيحَات الحضورِ المتأسفة: «أليس المسكِينة! أليس المسكِينة!»

تمنى أن يحظى ببعض السّكينة، لكنّ القاضيَة حطّمت رجاءه برثائها: «لا أحَد مع أليس، لا أحد يهتمّ بأليس، لا أحَد يصِل إلى أليس، أليس من الحُزنِ تبكِي.»

الأسوارُ شرعَت تتشقّق، والدّم من عينيها يتدفّق، يلطّخ وجنتيها وثيابَها، وبسؤاله وسط الضّوضاء فغَرت فاهَا: «هل تُحبّ أليس؟»

–«لا.»، أجاب. «إنّي أمقتها.»

كسورٌ أخرى فلقَت المبنى، والدّمية قرّرت أن يفنى: «الشّخص الذِي يكرهُ حاكِمتنا العزِيزة.»

خُيّل له للحظة أنّها حقًا بملامح دمية حين أردفت: «والذي يعتَقد نفسَه أفضَل من الآخرين، ما هو عقابُه؟»

–«الموت! المَوت! الموت!»، صرخَ الجمع الثائر.

–«الإعدام!»، في قهقَهة عريضَة أدلَت، وبصولجانِها المنصّة فلَقت، لترتَفع آراء من هنا وهناك، والعالَم لشجن أليس يضطرب:

–«فليُحرق!»

–«لا بل يغرق!»

–«أطعِموه جنًا مرِيعًا!»

–«لِم لا نموت جميعًا؟»، على إثر آخر جملة، صاحَت الدميَة: «أشعِلوا النّيران! ألهِبوا المكَان! رثاء لأليس الباكيَة، ليس لنا من باقيَة!»

ابتعَد الأرنبَان عن إياس، لتنفيذِ الأوامِر، وأغلقت كلّ المخارِج، فيشتعِل لهبٌ مارِج!

–«ما الذي يحصل بالضّبط؟»، نبَس الشّاب، رأسه يؤلمه، والضجيج يشعرُه بالدّوار، كانَ مما يجري كالمُحتار، لا فهمًا ولا سبيلَ للفرار، ليتنهّد بضجَر ويهمِس وقد يئس: «أيًا كان، لنمت وحَسب.»

وفجأة، أحس بشيء من خلفِه يقتَرب، منجَل حادٌ عنقَه كاد يقطَع، إلّا أنّه مُنِع، فقد صدَح صوتُ اصطدامٍ، ليلتَفت: «أنت!»

صدّ القطّ بمخالِبه منجَل ذاك الكائن الغرِيب بصعوبَة، معطف على جسَد مشوّه مظلم أشبه بخربَشات طفوليّة، عينَان بيضاوَان عشوائيتان كبدنه، أيادٍ كبيرَة ولا أقدَام، تعلو رأسه قبّعة دعجاء منمّقة.

–«ما أنت تفعل؟ ألَم أخبِرك أنْ من صاحِب القبّعات احذر!»

صاحَ نوي ليدَفع الوحش بعيدًا، ويكلّم إياس: «إنّه مبعوثُ الهاوِيَة، طالَما حُكِم عليك بالإعدام، على رأسك سيُنزِل القاضيَة.»

–«ومن يهتَم؟»، قال.

–«ماذا تعني؟»

–«دعهُ لِيقتلنِي، مللت من هذا بالفِعل.»، أضاف إياس في تعبِير منزَعج جاوَره شيء من انطفاء، فليَتنه هذا الهُذَاء!

–«هل أنت أحمق؟»، نطق نُويْ ليصدّ هجمَة أخرى من صانِع القبّعات، ويدير الآخر عينيه في محجَريهمَا يشرح: «أخبِرك أن هذا ليس من شأنِك، اهتمّ بأمورِك الخاصّة.»

ضربَة مفاجِئة من المدعوّ "ماد هاتر" قطَعت يَد نويْ ملقيةً إياهَا بعيدًا، ليس سقوط الأطرافِ شيئًا جديدًا، ليغرِز ذاك مخالِبه في وجهِ الأوّل، اقتلَعت عينَيه تردّه كالأحوَل، ويصرُخ في شيء من الغضب:

-«لا أدري ما الهَذر الذِي يجولُ في عقلِك لكنّ هذه هي الهاوِية، أنت الدّخيل فاغرُب عن هنَا وارجِع لأرضِك الحاوِية!»

لم يكُن ما ضايقَ إياس هي كلمات نوي، بقدر ما كانت نظراته: الاستحقارُ فِيها.

-«بئسًا، لَكم هذا مؤلم! لِم هو قويّ لهذِه الدّرجة؟»، تذمّر نوي عائدًا إلى نبرَة كلامِه العابِثة السّخيفة. «أخبرني ميريدِيث أنّه لن يصبِح قادرًا على علاجِي أكثر إن أعضائي فسدت، ماذا سأفعَل إن يدي تعفّنت؟»

زَفر إياس الهواء من رئتيه، لينبّه نوي ويسأله: «كيف يمكِننا التّخلص من هذا الأهوج؟»

بدا المخاطَبُ مندهشًا لحظَة عندما ردّ: «آه.. نعم، في الواقِع لا أعلم.»

-«ألا تدري شيئًا؟ ما فائدة وجودِك؟»

-«ذات انعدام نفعِك.»، ما إن ردّ نوي حتى بدأ السّقف بالاهتِزاز، النيران إليه وصلَت وها هو هنا وهناك يتهدّم، المجانِين لا يزالون يتصارخونَ وبعضم تحتَ الحُطامِ مدفون، أمّا صانع القبّعات فوَعيه شرع يستعيد.

-«هذا صحِيح!»، قال القطّ متذكرًا، إياس مخبرًا: «إنّه يلاحِق المجرِم "إياس"، إنّه اسمك المنقوش في ذكرياتك، والذي قضيت به لحظاتك، لكنّه ليس اسمك الحقيقيّ أليس كذلك؟ إن ذكرت اسمَك الحقيقيّ فستسقط التّهمة عنك!»

لم يفكّر الشاب لحظة قبل أن يرفض: «انسَ الأمر.»

-«هِي الطّريقة الوحِيدة! ها هو ذا ينهض..»

لم يسعفه أن يرمش حتى ليقارِب النّصل الحادّ عنقه في ثانِية، فيتجنّبه بالكاد، ويصرخ بالشّاب: «أسرِع، لا أستطيع المُقاوَمة أكثر!»

جرحٌ آخَر شقّ جَنَبه، ولكسب الوقت الرّكام فوقَ ماد هاتر أسقط، بينما إياس في أفكارِه ضائع: أينطق أم لا؟

–«إياس! قل اسمك!»

صاحَ به لآخر مرّة، فبحنق يهمس :«بئسًا!»، ليفتَح فاه وباسمه يكاد ينبِس!

عدَا أنّ خاطرًا مرّ بباله "لا تثق بأحدٍ هُنا"، وإذ به يسكت.

–«ماذا هناك؟»، استفسَر نُويْ، وكانت الإجابة ضحكة من جوفِ إياس تضجّ، ارتَفعت من الكتمانِ رويدًا، لتعمّ قهقَهته القاعَة، ثوانٍ ليهدأ قليلًا، ويردّ على ذاكَ في نظرة حادّة وبسمة عليلَة:

–«انظُر إلى تعبِيرك تفهم.»

كانَ نوي يبتَسم، بشكلٍ لا إراديّ، لم يقدِر على منع ثغره من الانبِلاج، في وجهٍ شيطانيّ.

رفَع الفتى رأسَه هاتفًا، كما لو أنّ الخبول قد مسّه: «هذا صحيح! أنتم جميعًا من أوّلكم إلى آخركم مجرّد عفاريت! مساعَدة؟ حمايَة؟ لا تملِكون أشياء كهذه في عقولكم المتعفّنة، كم ذا ممتع ومضحك!»

أخفض نظره، تحديدًا نحو القطّ: «كانت خدعَة جيّدة يا نُويْ، لكنّي للأسف لن أقَع فيهَا.»

لم يبعِد نُوي مظهر سحنتِه وتلفّظ: «يا حسرتَاه، فقدتُ يدِي من دونِ معنى.»، حرّك ذراعَه قليلًا واسترسَل: «إذًا، ماذَا ستفعَل؟ تذهَب لحتفِك عند صانِع القبّعات؟ تحترِق بالنّار؟ أم لي تودّع جَنَانك؟»

رجع التّجهّم إلى الآخر، الذِي بحدّة صرّح: «بدل أن أعطِي روحِي لمخلوقات قذِرة أمثالِكم، أفضّل الموت ألفَ مرّة.»

–«قم بمَا شئت، فقط تأكّد ألّا تندَم.»، مستهزئًا تفوّه.

تقدّم إياس إلى الذِي خرجَ من الحطَام، وقَف أمامَه، كائن من حِبر، خربَشات، والكثِير من اللّغط.

ألَا يُشبِهك؟

–«ترغَب برأسِي؟»، قال الفتى بينَما رفَع الوَحش منجَله، وبصوتٍ خشِنٍ قبِيحٍ في أذنيه رنّ: «أتُرِيد العَيش أم المنيّة؟»

صمت إياس، ليهوي النّصل يرجو الفَتك به، إلّا أنّه توَقّف على بعد شعرة من عنقِه، حيث الشّاب نبَس:

–«أنا..»

ضجِيج عظِيم، اللّهيب قد تغلغَل، ودارَ القضَاء دمّر، غبارٌ أغشى كلّ صوب، والبلاطُ صُبِغ بألوانٍ قانِية، الأرض ارتجّت والأعمِدة التجّت، لتسقط تباعًا محدثةً وقعًا رهيبًا وطيفُ الحمام حائِم، وعلى سنَا الصّباح المنِير استيقظ فزِعًا النّائم.

استيقظ إياس.

كانت مضطرِبة أنفاسُه، ومرتفعةً حرارتُه، نظرَ إلى السّقف، هو ككلّ يومٍ ذاته، تلفّت، هي غرفَته، لا شيء مختلفًا، الأمرُ الوحيد كذلك أنّه غطّ في النوم، لكن متى غمضت أجفانه؟ مهمَا فكّر، لم يستَطع أن يتذكّر.

–«كأنّي رأيتُ حلمًا طويلًا..»، حدّث نفسه، لكِنّه لم يقدر على استعراضِ شيء منه في ذهنِه، كلّ شيء مشوّش، كونه تأخّر عن الثّانويّة فقط مثبَت.

هرع بالقيَام ليجهّز نفسه قائلًا: «هذا ما ينقصنِي بعدَ آخر عِقاب.»

وخرج من غرفتِه بعد دقائق مسرعًا، سَار عبرَ الرّواق مباشرَة، ولم يكترِث بالنّظر إلى المرآة، لم يرَ الشقّ في طرفِها.

♤♧•••••♧♤

أنْ تُصبِح إنسانًا.

في غرفَة مدلَهمَة، لا نُور فيهَا إلّا من ضياء القَمر المستعَار يتسلّل من الشرفَة، حيثُ وقَف صاحبُ الشعر الثّلاجِي الذِي علَته قبّعتان ذواتَا اسوِداد، واحِدة فوق الأخرى كأنّها في حِداد، ليبرُق اللّازورَد في مقلتَيه، مستفتحًا بصوته الرّخيم:

–«لِماذا قلتَ ذلِك، بينمَا أنت لا تستَطيع التِهام الأرواحِ حتى؟»

حرّك المقصودُ يدَه المُخاطَة، ذراعه محمرّة تمامًا كأنّها محترِقة، مليء هو بالغرزَات في كلّ جانِب، ليردّ على المُخاطِب:

–«إن لم أفعَل، لا أظنّ أنّه كان سيختَار الحيَاة، ربّما.»

همهَم الأوّل متكئًا على الجِدَار: «وماذَا لو نطق اسمَه الحقيقيّ حقًا؟ كان ليموت فورًا.»

–«ليسَ غبيًا، من الواضِح أنّه لا يثِق بأحَد، ثمّ؛ لو لَم يرغَب من البدايَة بالتحرّر لما طارَده صانِع القبّعات أصلًا، بالأحرى؛ لمَا لحِقه وجدانه يتمنى إرجاعَه.»

–«أرى ذلِك..»، أومَا الأمره، ثمّ ببسمَة مطمئِنَة سأل: «وما السّبب؟ لا أعهَد أنّ لك قلبًا.»

تهلّلت أسارِير نوي حين نظَر إلى الواقِف قائلًا:

–«ألستَ أنت من أخبرتَنِي أيَا ميرِيديث، أنّك عندَما تُساعِد شخصًا بلا سَبب، يمكنُك الاقتِراب من الغدوّ بشرًا؟

أنا أرِيد أن أصبِح إنسانًا.»

♤♧•••تمّـت•••♧♤

نبذة عن المؤلفة

لازورد ريان

–الدولة: الجزائر.

–الأعمال السابقة:

لا يوجد.